﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ
لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ
وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ
إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ
تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

بعد أن أورد لنا الحق آداب الدعاء ومزجها وأدخلها فى الصوم ، يشرح لنا سبحانه آداب التعامل بين الزوجين فى أثناء الصيام ، ويأتى هذا التداخل والامتزاج بين الموضوعات المختلفة فى القرآن لنفهم منه أن الدين وحدة متكاتفة تخاطب كل الملكات الإنسانية ، ولا يريد سبحانه أن تظهر أو تطغى ملكة على ملكة أبدا .

يقول الحق : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » وساعة تسمع « أحل لكم » فكأن ما يأتى بالتحليل كان محرماً من قبل . والذى أحله الله فى هذا القول كان المحرم عينه فى الصيام ، لأن الصيام إمساك بالنهار عن شهوة البطن وشهوة الفرج ، فكأنه قبل أن تنزل هذه الآية كان الرفث إلى النساء فى ليل الصيام حراما ، فقد كان الصيام فى بدايته إمساكا عن الطعام من قبل الفجر إلى لحظة الغروب ، ولا اقتراب بين الزوجين فى الليل أو النهار . فكان الرفث فى ليلة الصيام محرماً . وكان يحرم

عليهم الطعام والشراب بعد صلاة العشاء وبعد النوم حتى يفطروا .

وجاء رجل وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ذهبت فلم أجد أهلى قد أعدوا لى طعاما ، فنمت ، فاستيقظت يا رسول الله فعلمت أنى لا أقدر أن آكل ولذلك فأنا أعانى من التعب ، فأحل الله مسألتين : المسألة الأولى هى : الرفث إلى النساء فى الليل ، والمسألة الثانية قوله الحق : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » أى كلوا واشربوا إلى الفجر حتى ولو حصل منكم نوم ، وهذه رخصة جديدة لكل المسلمين مثلها مثل الرخصة الأولى التى جاءت للمسافر أو المريض ، كانت الرخصة الأولى بخصوص مشقة الصوم على المسافر أو المريض ، أما الرخصة الجديدة فهى عامة لكل مسلم وهى تعميق لمفهوم الحكم .

وقد ترك الحق هذا الترخيص مؤجلا بعض الشىء لكى يدرك كل مسلم مدى التخفيف ، لأنه قد سبق له أن تعرض إلى زلة المخالفة ، ورفعها الله عنه ، وانظر للآية القرآنية وهى تقول : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم » .

كلمة « تختانون أنفسكم » هذه تعلمنا أن الإنسان لم يقو على الصوم كل الوقت عن شهوة الفرج ، فعندما تركك تختان نفسك ، ثم أنزل لك الترخيص ، هنا تشعر بفضل الله عليك .

إذن فبعض الرخص التى يرخص الله لعباده فى التكاليف : رخصة تأتى مع التشريع ، ورخصة تخفيفية تأتى بعد أن يجىء التشريع ، لينبه الحق أنه لو لم يفعل ذلك لتعرضتم للخيانة والحرج « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم » وانظر الشجاعة فى أن عمر رضى الله عنه ، يذهب إلى النبى ويقول له : أنا يا رسول الله ذهبت كما يذهب الشاب ، والذى جاع أيضا يقول للرسول عليه الصلاة والسلام:إنه جاع ، وجاء التشريع ليناسب كل المواقف ، فنمسك نهاراً عن شهوتى البطن والفرج ، وليلاً أحل الله لنا شهوتى البطن والفرج ، وهذا التخفيف إنما جاء بعد وقوع الاختيان ليدلنا على رحمة الله فى أنه قدر ظرف الإنسان ، « أحل لكم ليلة

الصيام الرفث إلى نسائكم » ، و « الرفث » هو الاستمتاع بالمرأة ، سواء كان مقدمات أو جماعاً . . « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا عملية التحام الرجل والمرأة بكلمة الله ، و« اللباس » هو الذى يوضع على الجسم للستر ، فكأن المرأة لباس للرجل والرجل لباس للمرأة واللباس أول مدلولاته ستر العورة . فكأن الرجل لباس للمرأة أى يستر عورتها ، والمرأة تستر عورته ، فكانها عملية تبادلية ، فهذا يحدث فى الواقع فهما يلتفان فى ثوب واحد ، ولذلك يقول : « باشروهن » أى هات البشرة على البشرة .

إذن، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا أن المرأة لباس ساتر للرجل ، والرجل لباس ساتر للمرأة ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يظل هذا اللباس ستراً بحيث لا يفضح شيئاً من الزوجين عند الآخرين . ولذلك فالنبى عليه الصلاة والسلام يحذرنا أن يحدث بين الرجل وأهله شىء بالليل وبعد ذلك تقول به المرأة نهاراً ، أو يقول به الرجل ، فهذا الشىء محكوم بقضية الستر المتبادل .

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » . وما دام هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، فيكون من رحمة التشريع بالإنسان وقد ضَمَّ الرجلَ والمرأة لباس واحد وبعد ذلك نطلب منهما أن يمتنعا عن التواصل .

إذن، فقوله : « تختانون أنفسكم » كان مسألة حتمية طبيعية ، ولذلك قال الحق بعدها : « فتاب عليكم » ومعنى « تاب عليكم » هو إخبار من الله بأنه تاب ، وحين يخبر الله بأنه تاب ، أى شرع لهم التوبة ، والتوبة كما نعرف تأتى على ثلاث مراحل : يشرع الله التوبة أولاً ، ثم تتوب أنت ثانياً ، ثم يقبل الله التوبة ثالثاً ، «وعفا عنكم » لانه ما دام قد جعل هذه العملية لحكمة إبراز سمو التشريع فى التخفيف ، فيكون القصد أن تقع هنا وأن يكون العفو منه ـ سبحانه ـ .

ويقول الحق : « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم » فلم يشأ أن يترك المباشرة على عنانها، فقال: أنت فى المباشرة لابد أن تتذكر ما كتبه الله، وما كتبه الله

هو الإعفاف بهذا اللقاء والإنجاب ، فالمرأة تقصد إعفاف الرجل حتى لا تمتد عينه إلى امرأة أخرى ، وهو يقصد أيضاً بهذه العملية أن يعفها حتى لا تنظر إلى غيره ، والله يريد الإعفاف فى تلك المسألة لينشأ الطفل من هذا اللقاء على أرض صلبة من الطهر والنقاء .

وحتى لا يتشكك الرجل فى بضع منه هم أبناؤه ، والحق سبحانه يريد طهارة الإنسان ، فكل نسل يجب أن يكون محسوباً على من استمتع ، وبعد الاستمتاع ، عليه أن يتحمل التبعة ، فلا يصح لمسلم أن يستمتع ويتحمل سواه تبعة ذلك ، فالمسلم يأخذ كل أمر بحقه . « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم » أى ما كتب الله من أن الزواج للإعفاف والإنجاب . وفى ذلك طهارة لكل أفراد المجتمع . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر »[1].

ويتابع الحق : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » أى إلى أن يتضح لكم الفجر الصادق . وكان هناك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أذانان للفجر ، كان بلال يؤذن بليل ، أى ومازال الليل موجوداً ، وكان ابن أم مكتوم يؤذن فى اللحظة الأولى من الفجر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإن سمعتم أذان ابن أم مكتوم فأمسكوا » . لكن أحد الصحابة وهو عدى بن حاتم قال : أنا جعلت بجوارى خيطاً أبيض وخيطاً أسود ، وأظل آكل حتى أتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . فقال له : إنك لعريض القفا (أى قليل الفطنة) فالمراد هنا بياض النهار وسواد الليل .

ويتابع الحق : « ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد » . لقد كانوا يفهمون أن المباشرة فى الليل حسب ما شرع الله لا تفسد

(١) رواه مسلم وأبو داود ، وأحمد .

الصوم . ولكن كان لابد من وضع آداب للسلوك داخل المسجد أو لآداب سنة الاعتكاف التي سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في العشر الأواخر من رمضان . لهذا أوضح الحق أن حلال المباشرة بين الرجل وزوجته هو لغير المعتكف وفي غير ليل رمضان . أما المعتكف في المسجد فذلك الأمر لا يحل له ، ومعنى الاعتكاف هو أن تحصر حركتك في زمن ما على وجودك في مكان ما ، ولذلك يقولون : « فلان معتكف هذه الأيام » أي حبس حركته في زمن ما في مكان ما ، وليس معنى ذلك أن الاعتكاف مقصور على العشر الأواخر من رمضان فقط ، ولكن للمسلم أن يعتكف في بيت الله في أي وقت .

واختلف العلماء في الاعتكاف ، بعضهم اشترط أن يكون المرء صائماً حين يعتكف ، واشترطوا أيضا أن يكون الاعتكاف لمدة معينة ، وأن يكون بالمسجد ، وقالوا : إن أردت الاعتكاف ، فاحصر حركتك في مكان هو بيت الله .

وكثير من العلماء يقولون : إنك إذا دخلت المسجد تأخذ ثواب الاعتكاف مادمت قد نويت سنة الإعتكاف ؛ بشرط ألا تتكلم في أي أمر من أمور الدنيا ؛ لأنك جئت من حركتك المطلقة في الأرض إلى بيت الله في تلك اللحظة ، فاجعل لحظاتك لله . ولذلك حينما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ينشد ضالته في المسجد - أي شيئا قد ضاع منه - فقال له : « لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا »[1] .

لماذا ؟ لأن المسجد مكان للعبادة ، ولذلك أقول لمن يحدثني في المسجد بأي شيء يتعلق بحركة الحياة : « أبشر بأنها لن تنفع » ؛ لأنك دخلت المسجد للعبادة فقط ، إن لحظة دخولك المسجد هي لحظة جئت فيها لتقترب من ربك وتناجيه ، وتعيش في حضن عنايته ، فلماذا تأتي بالدنيا معك ؟ وليكن لنا في أحد الصحابة قدوة حسنة ؛ كان يقول : كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا . وزاد صحابي آخر فقال له : وزد يا أخي أننا نترك أقدارنا مع نعالنا .

انظر إلى الدقة ، إن الصحابي المتبع لا يخلع الدنيا مع نعله فقط على باب المسجد ، ولكن يخلع أيضاً قدره في الدنيا . فيمكن أن تأخذك الدنيا ساعات اليوم

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبوداود والنسائي وابن ماجه .

الكثيرة، والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقت القليل ، فضع قدرك مع نعلك خارج المسجد ، وادخل بلا قدر إلا قدر إيمانك بالله . واجلس فى المكان الذى تجده خالياً، فلا تتخط الرقاب لتصل إلى مكان معين فى المسجد . فأنت تدخل بعبودية لله وقد يأتى مجلسك بجانب مَنْ يخدمك ، والصغير يقعد بجانب الكبير ، ولا تلحظ لك قدراً إلا قدرك عند الله .

إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث ينتهى به المجلس . أى عندما يجد مكاناً له ، وهذا خلاف زماننا حيث يحجز إنساناً مكاناً لإنسان آخر بالسجادة ، وقد يدخل إنسان ليتخطى الرقاب ، ويجلس فى الصف الأول وهو لا يعلم أن الله قد صف الصفوف قبل أن يأتى هو إلى المسجد . وما دمنا سنترك أقدارنا فلا تقل أين سأجلس وبجوار مَنْ ؟ بل اجلس حيث ينتهى بك المجلس ولا تتخط الرقاب . وانو الاعتكاف ولا تتكلم فى أى أمر من أمور الدنيا حتى لا تدخل فى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يبارك الله لك فى الضالة التى تنشدها وتطلبها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان ، فهل معنى ذلك أن الاعتكاف لا يصح إلا فى المساجد ؟ لا ؛ إن الاعتكاف يصح فى أى مكان ، ولكن الاعتكاف بالمسجد هو الاعتكاف الكامل ؛ لأنك تأخذ فيه بالزمان والمكان معاً .

« ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها » ومعنى « الحد » هو الفاصل المانع من اختلاط شىء بشىء ، وحدود الله هى محارمه . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« .. ومَنْ وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا إن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه »[1] .

إذن، فالمحارم هى التى يضع الله لها حداً فلا نتعداه . ولنا أن نلحظ أنه ساعة ينهى

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير وهو هنا جزء من الحديث .

الله عن شيء فهو يقول : « فلا تقربوها » وساعة يأمر بأمر يقول سبحانه : « فلا تعتدوها » . وفي ذلك رحمة من الله بك أيها المكلف .

فلا تجعل امرأتك تأتيك وأنت في معتكفك ؛ فقد تكون جميلة ، صحيح أنك لا تنوي أن تفعل أي شيء ، لكن عليك ألا تقرب أسباب النواهي ، ومثال ذلك تحريم الخمر لقد أمر الحق باجتنابها أي ألا تقرب حتى مكان الخمر ؛ لأن الاقتراب قد يُزين لك أمر احتسائها ، إذن فلكي تمنع نفسك من تلك المحرمات فعليك ألا تقرب النواهي . وفي الأوامر عليك ألا تتعداها .

ويذيل الحق الآية بقوله : « كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » . والآيات هي العجائب ، وكل آية هي شيء عجيب لافت ، لذلك نقول : هذه آية في الحسن ، وتلك آية في الجمال ، وقد تُطلق الآية أيضا على السمة ؛ لأن السمة أو العلامة هي التي تلفتنا إلى الشيء ، فيكون ما جاء بالآية داخلا في معنى قوله الحق : « تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » .

ولقد أوضحت هذه الآية والآيات السابقة عليها ، تشريعات الصيام والاستثناء من التشريع رفعا للحظر ودفعا للمشقة بعد أن تقع ، وكل ذلك ليستوفي التشريع كل مطلوبات الله من المشرَّع له . وحين يأخذ كل إنسان ذلك البيان الوافي من ربه ويسيطر به على حركة حياته في ضوء منهج الله يكون قد اتقى . والتقوى - كما نعلم - ليست للنار فقط ، ولكنها اتقاء لكل مشاكل الحياة ؛ فالذي يجعل الحياة مليئة بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التي نسنها لأنفسنا ونعمل بها ، ولكن إذا أخذنا تقنين الله لنا فمعنى ذلك أننا نتقي المشاكل . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة طه)

أي أن حياته تمتلىء بالهموم والمشاكل ، لأنه يخالف منهج الله . وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس : خالفنا منهج الله وفلحنا ، لذلك كان لابد أن توجد المشاكل لتنبهنا أن منهج الله يجب أن يسيطر . وحين يتمسك الناس بمنهج

الله ، لن تأتي لهم المشاكل بإذن الله .

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في ترتيب الأحكام بعضها على بعض ، فالإنسان المخلوق لله في الأرض المسخرة له بكل ما فيها ، له حياة يجب أن يحافظ عليها . وتبقى الحياة ببقاء الرزق في الاقتيات من مأكل ومشرب ، وكذلك يبقى النوع الإنساني بالتزاوج . وتكلم الله في رزق الاقتيات ، فجعله للناس جميعا عندما قال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة البقرة)

وتكلم سبحانه مخاطباً المؤمنين في شأن هذا الرزق ، فقال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة البقرة)

وبعد ذلك شاء الله أن يديم على المؤمنين به قضية التكليف فحرَّم عليهم الطعام والشراب والنكاح في أيام رمضان ، وهي حلال في غير رمضان ، وأحلها الله في ليل رمضان . وإذا كان قد أرشد أن كل حركة في الحياة هدفها بقاء الحياة ، وإذا كان بناء الحياة يتوقف على الطعام ؛ وهو أمر ضروري لكل إنسان ، وإذا كانت الحياة تمتد وتتوالى باستبقاء النوع ، فيبلغ الرجل وينضج ويصير أهلاً للإخصاب ، وتبلغ المرأة وتنضج وتصير أهلاً للحمل ، فإذا كانت كل المسائل السابقة لازمة للجميع ، فلابد من تشريع ينظم كل ذلك .

إن التشريع يسمح لك أن تأكل مما تملك ، أو تأكل مما لا مالك له ، كنبات الأرض غير المملوكة لأحد ، إلا أنك قبل أن تأكل لابد أن تنظر في الطعام لتعرف هل هو مما أحل الله أم لا ؟ والتشريع لا يسمح لك أن تأكل من نبات الأرض المملوك لغيرك ، ويحرم عليك أن تصطاد حيوانات مملوكة لغيرك ، فالتشريع يحترم الجهد

الذى تحرك به مالك الأرض ليزرع النبات أو ليُربى الحيوان ، فلا تقل : إن ذلك النبات فى الأرض وأنا آكل منه ، أو أن ذلك حيوان موجود أمامى وأنا اصطدته .

إن الحق يضع التشريع لينظم الحركة فى المال المملوك للغير بعد أن نظم الحركة فى المال غير المملوك والطعام غير المملوك ، فإذا سبقك إلى المال غير المملوك أو الطعام غير المملوك إنسان ، أو تحرك إنسان بحركة فى الوجود فاستنبط مالاً صارت هناك قضية أخرى لا تتعلق بذات المأكول ، ولكن بملكية المأكول ، فقد بيّن الله سبحانه : أن كل عمليات اقتياتك فى الحياة عملية لا يمكن أن تستقل بها أنت ، فلابد من اختلاط حركة الآخرين معك ، فأنت لا تأكل إلا مما يكون فى أيديهم ، وهم لا يأكلون إلا مما يكون فى يدك .

فالفلاح مثلاً يبذر البذر ، ولكنّه يحتاج إلى الصانع الذى يصنع له الفأس ، ويصنع له المحراث ، ويصنع له الساقية ، والذى يصنع ذلك يحتاج إلى من يعلمه ، ويحضر له المواد الخام ، إذن فلو سلسلت الأشياء التى توصلك إلى الطعام لوجدت حركات الكون كلها تخدم هذه المسألة . وهكذا نجد أن الآكل من المال المتداول أمر شائع بين البشر ، ويريد الله أن يضبطه بنظام فقال سبحانه :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

ومادامت أموالى فلماذا لا آكلها ؟ إن الأمر هنا للجميع ، والأموال مضافة للجميع ، فالمال ساعة يكون ملكا لى ، فهو فى الوقت نفسه يكون مالاً ينتفع به الغير .

إذن، فهو أمر شائع عند الجميع ، لكن ما الذى يحكم حركة تداوله ؟ إن الذى يحكم حركة تداوله هو الحق الثابت الذى لا يتغير ، ولا يحكمه الباطل . وما معنى الباطل ، والحق ؟ إن الباطل هو الزائل ، وهو الذى لا يدوم ، وهو الذاهب . والحق هو الثابت الذى لا يتغير فلا تأكل بالباطل ، أى لا تأكل مما يملكه غيرك إلا بحق أثبته الله بحكم : فلا تسرق ، ولا تغتصب ، ولا تخطف ، ولا ترتش ، ولا تكن خائناً فى الأمانة التى أنت موكل بها ، فكل ذلك إن حدث تكن قد أكلت المال بالباطل .

وحين تأكل بالباطل فلن تستطيع أنت شخصياً أن تعفى غيرك مما أبحته لنفسك ، وسيأكل غيرك بالباطل أيضاً . وما دمت تأكل بالباطل وغيرك يأكل بالباطل ، هنا يصير الناس جميعاً نهباً للناس جميعاً . لكن حين يُحكِّم الإنسان بقضية الحق، فأنت لا تأخذ إلا بالحق ، ويجب على الغير ألا يعطيك إلا بالحق ، وبذلك تخضع حركة الحياة كلها لقانون ينظم الحق الثابت الذى لا يتغير ، لماذا ؟ لأن الباطل قد يكون له علو ، لكن ليس له استقرار ، فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ (سورة الرعد)

وساعة ترى مطراً ينزل فى مسيل وواد ، فأنت تجد هذا المطر قد كنس كل القش والقاذورات وجرفها فطفت فوق الماء ولها رغوة ، وكذلك، فأنت عندما تدخل الحديد فى النار تجده يسيل ويخرج منه الخبث ، ويطفو الخبث فوق السطح ، وهكذا نجد أن طفو الشىء وعلوه على السطح لا يعنى أنه حق ، إنه سبحانه يعطينا من الأمور المُحسة ما نستطيع أن نميز من خلاله الأمور المعنوية ، وهكذا ترى أن الباطل قد يطفو ويعلو

إلا انه لا يدوم ، بل ينتهى ، والمثل العامى يقول : « يفور ويغور » .

إن الله يريد أن تكون حركة حياتنا نظيفة شريفة ، حركة كريمة فلا يدخل فى بطنك إلا ما عرقت من أجله ، ويأخذ كل إنسان حقه . وقبل أن يفكر الإنسان فى أن يأكل عليه أن يتحرك ليأكل ، لا أن ينتظر ثمرة حركة الآخرين ، لماذا ؟ لأن هذا الكسل يشيع الفوضى فى الحياة . وحين نرى إنساناً لا يعمل ويعيش فى راحة ويأكل من عمل غيره فإن هذا الإنسان يصبح مثلاً يحتذى به الآخرون فيقنع الناس جميعاً بالسكون عن الحركة ويعيشون عالة على الآخرين . ويترتب على ذلك توقف حركة الحياة ، وهذا باطل زائل ، وبه تنتهى ثمار حركة المتحرك ، وهنا يجوع الكل .

إن الحق يريد للإنسان أن يتحرك ليشبع حاجته من طعام وشراب ومأوى ، وبذلك تستمر دورة الحياة . إنه سبحانه يريد أن يضمن لنا شرف الحركة فى الحياة بمعنى أن تكون لك حركة فى كل شىء تنتفع به ؛ لأن حركتك لن يقتصر نفعها عليك ، ولكنها سلسلة متدافعة من الحركات المختلفة ، وحين تشيع أنت شرف الحركة فالكل سيتحرك نحو هذا الشرف ، لكن الباطل يتحقق بعكس ذلك ، فأنت حين تأكل من حركة الآخرين تشيع الفوضى فى الكون .

وعلى هذا فالحركة الحلال لا يكفى فيها أن تتحرك فقط ، ولكن يجب أن تنظر إلى شرف الحركة بألا تكون فى الباطل ، لأن الذى يسرق إنما يتحرك فى سرقته ، ولكن حركته فى غير شرف وهى حركة حرام . إذن كل مسروق فى الوجود نتيجة حركة باطلة ، وكذلك الغصب ، والتدليس ، والغش ، وعدم الأمانة فى العمل ، والخيانة فى الوديعة ، وإنكار الأمانة ، كل ذلك باطل ، وكل حركة فى غير ما شرع الله باطل ، حتى المعونة على حركة فى غير ما شرع الله ، كل ذلك باطل .

ويقول لنا الحق سبحانه : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » أى إياكم أن تأكلوها بالباطل ثم تدلوا بها إلى الحكام ليبرروا لكم أن هذا الباطل هو حق لكم . فهناك أناس كثيرون يرون فى فعل الحاكم مبرراً لأن يفعلوا مثله ، وهذا أمر خاطىء ؛ لأن كل إنسان مسئول عن حركته .

لا تقل إن الحاكم قد شرع أعمالاً وتُلقى عليه تبعة أفعالك ؛ ومثال ذلك تلك الأشياء التى نقول عليها إنها فنون جميلة من رقص وغناء وخلاعة ، هل إباحة الحكومات لها وعدم منعها لها هل ذلك يجعلها حلالاً ؟ لا ؛ لأن هناك فرقاً بين الديانة المدنية والديانة الربانية . ولذلك تجد أن الفساد إنما ينشأ فى الحياة من مثل هذا السلوك .

إن الذين يشتغلون بعمل لا يقره الله فهم يأكلون أموالهم بالباطل ، ويُدخلون فى بطون أولادهم الأبرياء مالاً باطلاً ، وعلى الذين يأكلون من مثل هذه الأشياء أن يتنبهوا جيداً إلى أن الذى يعولهم ، إنما أدخل عليهم أشياء من هذا الحرام والباطل ، وعليهم أن يذكروا ربهم وأن يقولوا : لا لن نأكل من هذا المصدر ؛ لأنه مصدر حرام وباطل . ونحن قد خلقنا الله وهو سبحانه متكفل برزقنا .

وأنا أسمع كثيراً ممن يقولون : إن هذه الأعمال الباطلة أصبحت مسائل حياة ، ترتبت الحياة عليها ولم نعد نستطيع الاستغناء عنها . وأقول لهم : لا ، إن عليكم أن ترتبوا حياتكم من جديد على عمل حلال ، وإذا أصر واحد على أن يعمل عملاً غير حلال ليعول من هو تحته ، فعلى المعال أن يقف منه موقفا يرده ، ويصر على ألا يأكل من باطل .

وتصوروا ماذا يحدث عندما يرفض ابن أن يأكل من عمل أمه التى ترقص مثلا أو تغنى ، أو عمل والده إذا علم أنه يعمل بالباطل ؟ المسألة ستكون قاسية على الأب أو الأم نفسيهما .

إن الذين يقولون : إن هذا رزقنا ولا رزق لنا سواه ، أقول لهم : إن الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب ، ولا يظن إنسان أن عمله هو الذى سيرزقه ، إنما يرزقه الله بسبب هذا العمل : فإن انتقل من عمل باطل إلى عمل آخر حلال فلن يضن الله عليه بعمل حق ورزق حلال ليقتات منه .

وقد عالج الحق سبحانه وتعالى هذه القضية حينما أراد أن يحرم بيت الله فى مكة

على المشـركين ، لقد كـان هناك أناس يعـيشون على مـا يأتى به المشركـون فى موسم الحج ، وكـان أهل مكة يبيعـون فى هذا الموسم الاقتصادى كل شىء للمشركين الذين يأتون للبيت ، وحين يـُحَرِّم الله على المشرك أن يذهب إلى البيت الحرام، فماذا يكون موقف هؤلاء ؟

إن أول مـــا يخطر عـلى البـــال هو الظن الـقـــائل : «مـن أين يعيـشون » ؟ ولنتـأمل القضيـة التى يريد الله أن ترسخ فى نفس كل مؤمن . قال الحق :

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة التوبة)

ثم يأتى للقضية التى تشغل بال الناس فيقول :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة التوبة)

وهكذا نرى أن هذه القضـية لم تخف على الله فلا يقـولن أحدٌ إن العمل الباطل الحرام هو مصـدر رزقى ، ولن أستطيع العيش لو تركته سواء كان تلحيناً أو عزفاً أو تأليـفاً للأغانى الخليعة ، أو الرقص ، أو نحت تماثيل . نقـول له : لا ، لا تجعل هذا مصـدراً لرزقك والله يقول لك : « وإن خفتـم عيلة فسوف يغنيكم الله من فـضله » . وأنت عندما تتقى الله ، فهـو سبحانه يجعل لك مخـرجاً . « ومن يتق الله يجعل له مخـرجاً . ويرزقه من حـيث لا يحتسب » ، وعليك أن تتـرك كل عمل فيه معصية لله وانظر إلى يد الله الممدودة لك بخيره .

إذن، فقول الله : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » تنبيه للناس ألا يُدخلوا فى بطونهـم وبطون من يعُولـون إلا مالاً من حق ، ومـالاً بحركة شريفة ؛ نظيفة، وليكن سند المؤمن دائماً قول الحق :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾

(سورة الطلاق)

ولنا أن نعرف أن مَنْ أكل بباطل جاع بحق ، اى أن الله يبتليه بمرض يجعله لا يأكل من الحلال الطيب ، فتجد إنساناً يمتلك أموالاً ويستطيع أن يأكل من كل ما فى الكون من مطعم ومشرب ، ولكن الأطباء يحرمون عليه الأكل من أطعمة متعددة لأن أكلها وبال وخطر على صحته ، وتكون النعمة أمامه وملك يديه ، ولكنه لا يستطيع أن يأكل منها بحق . وفى الوقت نفسه يتمتع بالنعمة أولاده وخدمه وحاشيته وكل مَنْ يعولهم ، مثل هذا الإنسان نقول له : لا بد أنك أخذت شيئاً بالباطل فحرمك الله من الحق .

ومن هنا نقول : « مَنْ أكل بباطل جاع بحق » . وكذلك نقول : « مَنْ استغل وسيلة فى باطل أراه الله قبحها بحق » ، فالذى ظلم الناس بقوته وبعضلاته المفتولة لا بد أن يأتى عليه يوم يصبح ضعيفاً .

والمرأة التى تهز وسطها برشاقة لابد أن يأتى عليها يوم يتيبس وسطها فلا تصبح قادرة على الحركة ، والتى تخايل الناس بجمال عيونها فى اليمين والشمال لا بد أن يأتيها يوم وتعمى فلا ترى أحداً ، وينفر الناس من دمامتها .

إن كل مَنْ أكل بباطل سيجوع بحق ، وكل مَنْ استغل وسيلة بباطل أراه الله قبحها بحق ، واكتب قائمة أمامك لـمَنْ تعرفهم ، واستعرض حياة كل مَنْ استغل شيئاً مما خلقه الله فى إشاعة انحراف ما أو جعله وسيلة لباطل لا بد أن يُريه الله باطلاً فيه .

وأنا أريد الناس أن يعملوا قائمة لكل المنحرفين عن منهج الله ، ويتأملوا مسيرة حياتهم، وكل منا يعرف جيرانه وزملاءه من أين يأكلون ؟ ومن أين يكتسبون ؟ ليتأمل حياتهم ويعرف أعمال الحلال والحرام ويجعل حياتهم عبرة له ولأولاده ، كيف كانوا؟ وإلى أى شيء أصبحوا ؟ ثم ينظر خواتيم هؤلاء كيف وصلت .

ومن حبنا لهؤلاء الناس نقول لهم : تداركوا أمر أنفسكم فلن تخدعوا الله فى أنكم تجمعون المال الحرام ، وبعد ذلك تخرجون منه الصدقات ، إن الله لن يقبل منكم عملكم هذا ؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب .

ونحن نسمع عن كثير من المنحرفين فى الحياة يذهبون للحج ، ويقيمون مساجد ويتصدقون ، وكل ذلك بأموال مصدرها حرام ، ولهؤلاء نقول : إن الله غنى عن عبادتكم ، وعن صدقاتكم الحرام ، وننصحهم بأن الله لا ينتظر منكم بناء بيوت له من حرام أو التصدق على عباده من مال مكتسب بغير حلال ، لكنه سبحانه يريد منكم استقامة على المنهج .

وحين نتأمل الآية نجد فيها عجباً ، يقول الله عز وجل : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام » لقد ذكر الحق الحكام فى الآية ؛ لأن الحاكم هو الذى يقنن ويعطى مشروعية للمال ولو كان باطلاً ، وقوله سبحانه : « تدلوا » مأخوذة من « أدلى » ، ونحن ندلى الدلو لرفع الماء من البئر و« دلاّه » : أى أخرج الدلو ، أما « أدلى » : فمعناها « أنزل الدلو » . ولذلك فى قصة الشيطان الذى يغوى الإنسان قال الحق :

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

« وتدلوا بها إلى الحكام » أى ترشوا الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالباطل ، ومن العجيب أن هذا النص بعينه هو نص الرشوة . والرشوة مأخوذة من الرِّشاء ، والرِّشاء هو الحبل الذى يعلق فيه الدَّلو ، فأدلى ودلاّ فى الرشوة . ولماذا يدلون بها إلى الحكام ؟ إنهم يفعلون ذلك حتى يعطيهم الحكام التشريع التقنينى لأكل أموال الناس بالباطل ، وذلك عندما نكون محكومين بقوانين البشر ، لكن حينما نكون محكومين بقوانين الله فالحاكم لا يبيح مثل هذا الفعل .

ولذلك وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ فقال : « إنما أنا بشر وإنه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحب انه صادق فأقضى له

بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] . إن الذى يقول ذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المعصوم ؛ إنه يحذر من أن يحاول أحد أن يبالغ فى قوة الحجة ليأخذ بها حقاً ليس له .

إذن فحين يُقنن الفساد فذلك نتيجة أن الحاكم يقر ذلك ، ويأخذ الإنسان حكم الحاكم كأمر نهائى ، مثال ذلك : بعض من الحكام لم يحرموا الربا ، ويتعامل به الناس بدعوى أن الحكومات تحلله ، فلا حرج عليهم . ومثل هذا الفهم غير صحيح ؛ لأن الحكومات لا يصح أن تحلل ما حرمه الله ، وإن حللت ذلك فعلى المؤمن أن يحتاط وأن يعرف أنه والحكام محكومون بقانون إلهى ، وإن لم تقنن الحكومات الحلال من أجل سلطتها الزمنية فعلى المؤمن ألا يخرج عن تعاليم دينه .

وإذا نظرنا إلى أى فساد فى الكون ، فى أى مظهر من مظاهر الفساد فسنجد أن سببه هو أكل المال بالباطل ، ولذلك لم يترك الحق سبحانه وتعالى تلك المسائل غائبة ، وإنما جعلها من الأشياء المشاهدة . وأنت إن أردت أن تعرف خلق أى عصر ، واستقامته الدينية وأمانته فى تصريف الحركة فانظر إلى المعمار فى أى عصر من العصور ، انظر إلى المبانى ومن خلالها تستطيع أن تُقيم أخلاق العصر . إنك إن نظرت إلى عملية البناء الآن تجد فيها استغلال المال ، وعدم أمانة المنفذ ، وخيانة العامل ، وكل هذه الجوانب تراها فى المعمار . لننظر مثلا إلى مجمع التحرير ولنسترجع تاريخ بنائه ، ولنقرنه بمبنى هيئة البريد أو دار القضاء العالى وما بنى فى عهدهما .

ولننظر إلى المبانى والإنشاءات التى نسمع عنها وتنهار فوق سكانها ولنقارنها بمبنى هيئة البريد أو دار القضاء العالى ، سنجد أن المبانى القديمة قامت على الذمة والأمانة ، أما المبانى التى تنهار على سكانها فى زماننا أو تعانى من تلف وصلات الصرف الصحى فيها ، تلك المبانى قامت على غش الممول الشره الطامع ، والمهندس المدلس الذى صمم أو أشرف على البناء أو الذى تسلم المبنى وأقر صلاحيته ، ومرورا بالعامل الخائن ، وتكون النتيجة ضحايا أبرياء لا ذنب لهم ، ينهار عليهم المبنى

---

(١) رواه البخارى .

ويخرجون جثثا من تحت الأنقاض ، إن كل ذلك سببه أكل المال بالباطل . ولقد نظر الشاعر أحمد شوقى فى هذه المسألة ، وجعل الأخلاق والدين من المبادىء فقال :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

وأنا أقترح على الدولة أن تعد سجلا محفوظا لكل عمارة يتم بناؤها ، ويُحفظ فى هذا السجل اسم مموِّلها ، والمهندس الذى أشرف على بنائها ، وكذلك أسماء عمال البناء ، وعمال التشطيب ، والأعمال الصحية والكهربائية وكافة العمال الذين شاركوا فى بنائها . ويُحفظ كل ذلك فى ملف خاص بالعمارة ، وعندما يحدث أى شيء يأتون بهؤلاء ، كل فى تخصصه ويحاسبونهم على ما قصروا فيه من عمل ، وإلا فإن أرواح الناس ستذهب سدى ، فكل إنسان منا له فرصة فى هذه الحياة وعليه ألا يطغى على نصيب غيره .

وهب أننا نأخذ سلعة « بطابور » حتى لا يتقدم أحد على دور الاخر ، وقد جاء الأول فى « الطابور » من الساعة السابعة صباحا وأخذ دوره ، وجاء آخر متأخرا بعد أن نام واستراح ثم قضى جميع مصالحه وذهب للجمعية ووجد الصف طويلا ، فنظر حوله إلى شخص يتخطى هذا « الطابور » ، وأعطاه مبلغا من المال سهل له قضاء حاجته . مثل هذا الإنسان تعدى على حقوق كل الواقفين فى « الطابور » .

وقد يقول : أنا أخذت مثلما يأخذون ، نقول له : لا ، لقد أخذت زمن غيرك ، ولا يصح أن تأتى اخر الناس وتأخذ حق الشخص الذى وقف فى « الطابور » من السابعة صباحا . إن حقك مرتبط بزمنك ، فلا تعتد على وقت الآخرين الذين هم أضعف منك قدرة أو مالا .

إن الحق يقول : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » . والفريق هو الجماعة المعزولة من جماعة أكثر عددا ، فإذا ما انفصلت جماعة صغيرة عن أناس بهذه الجماعة تسمى فريقا .

والإثم الأصل فيه - ولو لم يكن هناك دين - أن تفعل ما تُعاب عليه وتُذم، وكذلك تُعاب عليه وتُذم من ناحية الدين ، وفوق ذلك تُعاقب فى الآخرة . وما هو مقياس الحق والباطل ؟ إن المقياس الذى ينجيك من الباطل هو أن تقبل لنفسك ما تقبله للطرف الآخر فى أية صفقة أو معاملة ؛ لأنك لا ترضى لنفسك إلا ما تعلم أن فيه نفعاً لك .

ثم ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية يعالج فيها أمراً واجه الدعوة الإسلامية، والدعوة الإسلامية إنما جاءت لتخلع المؤمنين بالله من واقع فى الحياة كان كله أو أغلبه باطلاً ، ولكنهم اعتادوه وألفوه أو استفاد أناس من ذلك الباطل ، ذلك أن الباطل لا يستمر إلا إذا كان هناك مَنْ يستفيدون منه . وجاء الإسلام ليخلص الناس من هذه الأشياء الباطلة . فالحق لم يشأ أن يعلمنا أن كل أحوال الناس غارقة فى الشرور ، بل كانت هناك أمور أقرها الإسلام كما هى ، فالإسلام لم يغير لمجرد التغيير ، ولكنه واجه الأمور الضارة بالحياة التى لا يستفيد منها إلا أهل الباطل .

مثال ذلك كان العرف السائد فى الدية أنها مائة من الإبل يدفعها أهل القاتل ، وقد أبقاها الإسلام كما هى . وحينما استقبل المسلمون الإيمان بالله ، فهم قد استقبلوا أحكامه وأرادوا أن يبنوا حياتهم على نظام إسلامى جديد طاهر ، حتى الشيء الذى كانوا يعملونه فى الجاهلية كانوا يسألون عن حكمه ؛ لأنهم لا يريدون أن يصنعوه على عادة ما كان يُصنع ، بل على نية القربى إلى الله بالامتثال ، إذن فهم عشقوا التكليف ، وعلموا أن الله لم يكلفهم إلا بالنافع ، وعندما تقرأ «يسألونك» فى القرآن فاعلم أنها من هذا النوع ، مثل ذلك قوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. (٢١٩) ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ .. (٢٢٠) ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ .. (٢١٥) ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣) ﴾

(سورة الكهف)

وقوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ .. (١) ﴾

(سورة الأنفال)

إذن، فكل سؤال معناه أنهم أرادوا أن يبنوا حياتهم على نُظام إسلامى ، حتى الشىء الذى لم يغيره الإسلام أرادوا أن يعرفوه ويصنعوه على أنه حكم الإسلام لا على حكم العادة .

والسؤال الذى نحن بصدده يعالج قضية كونية . وعندما يسأل المسلمون عن قضية كونية فذلك دليل على أنهم التفتوا إلى كون الله التفاتاً دينياً آخر ، لقد وجدوا الشمس تشرق كل يوم ولا تتغير ، أما القمر الذى يطلع فى الليل فهو الذى يتغّير ، إنه يبدأ فى أول الشهر صغيراً ثم يكبر حتى يصبح بدراً ، وبعد ذلك يبدأ فى التناقص حتى يعود إلى ما كان عليه ، لقد لفت نظرهم ما يحدث للقمر ولا يحدث من الشمس ، فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم ، أو أن بعضاً من اليهود أرادوا إحراج المسلمين، فقالوا لهم : « اسألوا رسولكم عن الهلال كيف يبدأ صغيراً ثم يكبر حتى

يصير بدراً ثم يعود لدورته مرة أخرى حتى يغرب ليلتين لا نراه فيهما » ، وهذا السؤال سجله القرآن فى قوله تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

الأهلة جمع هلال ، وسمى هلالاً لأن الإنسان ساعة يراه يهل ، أى يرفع صوته بالتهليل . ويجيب الحق سبحانه وتعالى الجواب الذى يحمل كل التفاصيل عن القمر ، وهو الكوكب الذى خضع لنشاطات العقل حتى يكتشفه ، والعرب القدامى لم يكونوا يعلمون شيئاً عن ذلك القمر ، ولكنهم كانوا يؤرخون به ، وعلمهم به لم يزد على حدود انتفاعهم به . ولم يصلوا إلى الترف العقلى الذى يتأملون به آيات الله فى الكون ، فكل آيات الكون يُنتفع بها ثم ينشط العقل بعد ذلك ، فنعرف السبب ، وقد لا ينشط العقل، فتظل الفائدة هى الفائدة .

وأراد الحق سبحانه أن يلفتنا لمبدأ مهم ، وهو أن يعلمنا كيف نستفيد من الآيات الكونية مثل القمر ، لا يكفى ظهوره واختفاؤه ، وتغير حجمه ، لأن هذه لن يتسع لها العقل ، بل نستفيد منه كميقات ، ونستخدمه لقياس الزمن . فإذا كنا ونحن نعيش فى القرن العشرين ، لم يعرف العلماء سبباً لظواهر القمر ، فكيف كان حال الذين سألوا عنها منذ أربعة عشر قرناً ؟

قال العلماء المعاصرون فى تفسيراتهم مثلاً : إن الشمس مثل حجم الأرض مليونا

وربع مليون مرة ، والقمر أصغر من الأرض ، وعندما تأتى الأرض بين الشمس والقمر برغم حجم الشمس الهائل فإن الأرض تحجب جزءاً من القمر ، هذا الجزء المحجوب بقدر تدوير القوس المحجوب من الأرض ويصبح هذا الجزء من القمر مظلماً .

إن القمر وجوده ثابت لكن الأرض عندما توجد بينه وبين الشمس فهى التى تحجب عنه ضوء الشمس ، ويكبر حجم نوره كلما تزحزحت الأرض بعيداً عنه . وعندما تنزاح الأرض بعيداً عنه كلية يظهر فى السماء بدراً كاملاً ، ثم تعود الأرض بعد ذلك لتحجب عنه جزءاً من الشمس ، ويزداد ذلك يوماً بعد يوم ، فينقص ضوء الشمس المنعكس عليه تبعاً لذلك ، فيقل تدريجياً حتى تأتى الأرض بينه وبين الشمس فلا يظهر منه شيء .

ونقول نحن : إننا عندما لا نرى القمر لا فى الليل ولا فى النهار برغم أنه موجود فى مكانه ، نقول : إنه مستور فى ظل الأرض ، لذلك لا نراه . وهذه الظاهرة لا تحدث للشمس لأن جرم الشمس كبير جداً . وعندما يحدث فإن الأثر يكون قليلا ، ويسمى بالكسوف .

وعندما التفت العرب للكون قالوا : ما بال الهلال يصبح هكذا ثم يكبر حتى يصير بدراً ، فقال الحق عز وجل : « قل هى مواقيت للناس والحج » إنهم هم يسألون عن الأهلة ودورتها ، فقطع الله عليهم خيط تفكيرهم وأعطاهم الخلاصة والنتيجة ، فقال : « قل هى مواقيت للناس والحج » . إن هذا الأمر هو الذى يستطيع العقل فى ذلك الزمان أن يعرفه ، أما ما وراء ذلك فانتظروا حتى يكشف الزمن عنه ، وجهلكم به لا يقلل من نفعكم .

لقد كانت كل إجابة لأى سؤال فى ذلك الزمان تحتوى على ما يتسع العقل لإدراكه ساعة التشريع ، أما بقية الإجابة فالحق يتركها للزمن . ولا يعطينا إلا ما يفيد التشريع ، مثال ذلك : كانوا قديما يقولون : الأرض كرة وأثبت لنا العلم أنها كذلك ، ورأيناها بالأقمار الصناعية وانتهت القضية .

وعندما سأل العرب عن الأهلة أخبرنا الحق بأنها مواقيت ، والمواقيت جمع ميقات ، والميقات من الوقت ، والوقت هو الزمن ، ونعرف أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى زمن وإلى مكان . إذن فالزمان والمكان مرتبطان بالحدث ، فلا يوجد زمان ولا مكان إلا إذا وجد حدث .

والذى يقول : كيف كان الزمن قبل أن يخلق الله الخلق ؟ . نقول له : الزمن وُجد للحادث وهو المخلوقات والله قديم ، ومادام الله قديما وليس حادثا فلا زمان ولا مكان ، لا تقل متى ولا أين ؛ لأن متى وأين مخلوقة . وكيف نعرف الوقت ؟ نحن نعرف الوقت بأنه مقدار من الزمن ، لمقدار من الحركة ولمقدار من الفعل .

وأين المكان فى هذا التعريف ؟ إن الزمان يتحكم أحياناً فى المكان ، فيكون الزمان هو الأصل ، والمكان طارىء عليه ، ومرة أخرى يكون المكان هو الأصل ، والزمان هو الطارىء عليه ، ومرة ثالثة يتلازم الاثنان الزمان والمكان .

ونحن فى مصر إذا أردنا الحج فإننا نبدأ الإحرام عند رابغ ، ونُسمى رابغ ميقات أهل مصر أى هى المكان الذى لا يتجاوزه من مر عليه إلا وهو محرم .

إذن فالميقات قد أطلق على مكان هو رابغ ، ومن فور وصول الإنسان المصرى إلى رابغ بغية الحج يحرم ، سواء كان الوقت صباحاً أو ظهراً أو عصراً أو مغرباً .

ولكن عندما نبدأ فى الصوم فإن الزمن يصبح هو الأصل فى صومك فى أى مكان تذهب إليه ، إن الزمان هو الذى يحدد مواعيد الصوم : فى طنطا أو لندن أو فى طوكيو ، وهكذا نعرف كيف يكون الزمن ميقاتاً .

إذن فمرة يكون الزمن هو المتحكم فى الميقات والمكان طارىء عليه ، ومرة يكون المكان هو الذى يتحكم فى الميقات ، والزمن طارىء عليه ، ومرة يتحكم الزمان والمكان معاً فى الفعل مثل يوم عرفة .

وهكذا نعـرف معنـى « مواقـيت للناس » ، فنحن بالهـلال نعـرف بدء شهـر رمضان، ونعرف به عيد الفطر ، وكذلك موسم الحج وعدة المرأة ، والأشهر الحرم ، إن كل هذه الأمور إنما نعـرفها بالمواقـيت . وشاء الحق أن يجـعل الهلال هو أسلوب تعريفنا تلك الأمور وجـعل الشمس لتدلنا على اليوم فقط ، وإن كان لـها عمل آخر في البروج التي يتعلق بها حالة الطقس والجو ، والزراعة ، ولذلك قال :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥) ﴾

(سورة يونس)

وانظر إلى الدقـة في الأداء وكيف يشـرح الحق للإنسان مـاهية النور ، ومـاهية الضوء . إن الشمس مضيئة بذاتها ، أما القمر فهو منير ؛ لأن ضوءه من غيره ؛ فهو مثل قطعة الحجـر اللامعة التي تنعكس عليها أشعة الشمس فـتعطينا نوراً . إن القمر منير بضوء غيره ، ولذلك يقول الحق في آية أخرى :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) ﴾

(سورة الفرقان)

والسراج في هذه الآية هو الشمس التي فيها حرارة ، وجعلها الحق ذات بروج، أما القمر فله منازل وهو منير بضوء غيره ؛ وفي ذلك يقول الحق :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (٥) ﴾

(سورة يونس)

إذن، فعدد السنين وحسابهـا يأتي من القمر ، وفي زماننا إذا أرادوا أن يضبطوا المعايير الزمنية فهم يقـيمونها بحساب القمر ؛ فقد وجـدوا أن الحساب بالقمر أضبط من الحساب بالشمس ؛ فالحساب بالشمس يختل يوماً كل عدد من السنين .

ولنفهم الفرق بين منازل القمر وبروج الشمس . إن البروج هى أسماء من اللغة السريانية ، وهو : برج الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والعذراء ، والأسد ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت ، وعددها اثنا عشر برجا هذه هى أبراج الشمس ، ويتعلق بها مواعيد الزرع والطقس والجو ، ويجب أن نفهم أن لله فى البروج أسراراً ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جعلها قَسَماً حين يقول : « والسماء ذات البروج » .

ولذلك نجد أن التوقيت فى الشمس لا يختلف ؛ فالشهور التى تأتى فى البرد ، والتى تأتى فى الحر هى هى ، وكذلك التى تأتى فى الخريف ، والربيع ، وبين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يوما ، والسنة القمرية هى التى تستخدم فى التحديد التاريخى للشهور العربية ونعرف بداية كل شهر بالهلال :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

ولذلك كانت تكاليف العبادة محسوبة بالقمر حتى تسيح المنازل القمرية فى البروج الشمسية ، فيأتى التكليف فى كل جو وطقس من أجواء السنة ، فلا تصوم رمضان فى صيف دائم ، ولا فى شتاء دائم ، ولكن يُقلِّبُ الله مواعيد العبادات على سائر أيام السنة ، والذين يعيشون فى المناطق الباردة مثلاً لو كان الحج ثابتا فى موسم الصيف لما استطاعوا أن يؤدوا الفريضة ، ولكن يدور موسم الحج فى سائر الشهور فعندما يأتى الحج فى الشتاء ييسر لهم مهمة أداء الفريضة فى مناخ قريب من مناخ بلادهم .

وهكذا نجد أن حكمة الله اقتضت أن تدور مواقيت العبادات على سائر أيام السنة حتى يستطيع كل الناس حسب ظروفهم المناخية أن يؤدوا العبادات بلا مشقة . إذن فالمنازل شائعة فى البروج ، وهذا سبب قول بعض العلماء : إن ليلة القدر تمر دائرة فى كل ليالى السنة ، وذلك حسب سياحة المنازل فى البروج .

إذن فهناك بروج للشمس ، ومنازل للقمر ، ومواقع للنجوم ، ومواقع النجوم

هى التى يقسم بها الله سبحانه فى قوله :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾

(سورة الواقعة)

ولعل وقتا يأتى يكشف الله فيه للبشرية أثر مواقع النجوم على حياة الخلق وذلك عندما تتهيأ النفوس لذلك وتقدر العقول على استيعابه . إذن كل شيء فى الكون له نظام : للشمس بروج ، وللقمر منازل ، وللنجوم مواقع . وكل أسرار الكون ونواميسه ونظامه فى هذه المخلوقات ، وقد أعطانا الله من أسرار الأهلة أنها مواقيت للناس والحج . وعندما تكلم سبحانه عن الحج أراد أن يعطينا حكماً متعلقاً به ؛ فقد كانت هناك قبائل من العرب تعرف بالحمس ، هؤلاء الحمس كانوا متشددين فى دينهم ومتحمسين له ، ومنهم كانت قريش ، وكنانة ، وخثعم ، وجشم ، وبنو صعصاع بن عامر . وكان إذا حج الفرد من هؤلاء لا يدخل بيته من الباب ؛ لأنه أشعث أغبر من أثر أداء مناسك الحج . ويحاول أن يدخل بيته على غير عادته ، لذلك كان يدخل من ظهر البيت ، وكان ذلك تشدداً منهم ، لم يرد الله أن يُشرّعه . حتى لا يطلع على شيء يكرهه فى زوجه أو أهله . وأراد سبحانه عندما ذكر مناسك الحج فى القرآن أن ينقى المناسك من هذه العادة المألوفة عند العرب فقال :

« وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » أى لا تجعلوا المسائل شكلية ، فنحن نريد أصل البر وهو الشيء الحسن النافع .

والملاحظ أن كلمة « البر » فى هذه الآية جاءت مرفوعة ، لأن موقعها من الإعراب هو « اسم ليس » وهى تختلف عن كلمة « البر » التى جاءت من قبل فى قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » التى جاءت منصوبة ؛ لأن موقعها من الإعراب هو « خبر مقدم لليس » . حاول المستشرقون أن يأخذوا هذا الاختلاف فى الرفع والنصب على القرآن الكريم . ونقول لهم : أنتم قليلو الفطنة والمعرفة باللغة العربية ، فماذا نفعل لكم ؟ . يصح أن نجعل الخبر مبتدأ فنقول :

« زيد مجتهد » ، هذا إذا كنا نعلم زيداً ونجهل صفته ، فجعلنا زيداً مبتدأ ، ومجتهداً خبراً . لكن إذا كنا نعرف إنسانا مجتهداً ولا نعرف من هو ؛ فإننا نقول : « المجتهد زيد » .

إذن فمرة يكون الاسم معروفاً لك فتلحق به الوصف ، ومرة تجهل الاسم وتعرف الوصف فتلحق الاسم بالوصف . وهذا سر اختلاف الرفع والنصب فى كلمة « البر » فى كل من الآيتين . ونقول للمستشرقين : إن لكل كلمة فى القرآن ترتيبًا ومعنى ، فلا تتناولوا القرآن بالجهل ، ثم تثيروا الإشكالات التى لا تقلل من قيمة الكتاب ولكنها تكشف جهلكم .

ثم ما هو « البر » ؟ قلنا : إن البر هو الشىء الحسن النافع . ولو ترك الله لنا تحديد « البر » لاختلفت قدرة كل منا على فهم الحسن والنافع باختلاف عقولنا ؛ فأنت ترى هذا « حسناً » ؛ وذاك يرى شيئا آخر ، وثالث يرى عكس ما تراه ، لذلك يخلع الله يدنا من بيان بمعنى البر ، ويحدد لنا سبحانه مواصفات الحسن النافع ، فما من واحد ينحرف ويميل إلى شىء إلا وهو يعتقد أنه هو الحسن النافع ، ولذلك يقول الحق : « ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من أبوابها » .

إن هذا يدلنا على أن كل غاية لها طريق يوصل إليها ، فاذهب إلى الغاية من الطريق الذى يوصل إليها . ويتبع الحق قوله عن البر : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » . لاتزال كلمة التقوى هى الشائعة فى هذه السورة ، وكل حكم يعقبه السبب من تشريعه وهو التقوى .

ونعرف أن معنى التقوى هو أن تتقى معضلات الحياة ، ومشكلاتها بأن تلتزم منهج الله . وساعة ترى منهج الله وتطبقه فأنت اتقيت المشكلات ، أما من يعرض عن تقوى الله فإن الحق يقول عن مصيره :

﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة طه)

ولا يظن أحد أن التقوى هى اتقاء النار ، لا ، إنها أعم من ذلك ، إنها اتقاء المشكلات والمخاطر التى تنشأ من مخالفة منهج الله . وليعلم الإنسان أن كل مخالفة ارتكبها لابد أن يمر عليها يوم تُرتكب فيه هذه المخالفة كما ارتكبها فى غيره ، فمن لا يحب أن تُجرى فيه المخالفات فعليه ألا يرتكب المخالفات فى غيره .

وبعد ذلك ينتقل الحق إلى قضية أخرى ، وهذه القضية الأخرى هى التى تميز الأمة الإسلامية بخصوصية فريدة ؛ لأنه سبحانه قد أوجد وفطر هذه الأمة على منهاج قويم لم تظفر به أمة من قبل ، وهذه الخصوصية هى أن الله قد أمن أمة محمد على أن تؤدب الخارجين على منهج الله ؛ فقديماً كانت السماء هى التى تُؤدب هؤلاء الخارجين عن المنهج . كان الرسول يشرح ويبلغ المنهج ، فإن خالفه الناس تتدخل السماء وتعاقبهم ، إما بصاعقة ، وإما بعذاب ، وإما بفيضان ، وإما بأى وسيلة . ولم يكن الرسل مكلفين بحمل وقسر الناس على المنهج . وحين سأل بنو إسرائيل ربهم أن يقاتلوا ، لم يكن قتالهم من أجل الدين مصداقا للآية الكريمة :

﴿ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

علة القتال ـ إذن ـ أنهم أُخرجوا من بيوتهم وأُجبروا على ترك أولادهم ، فهم عندما سألوا القتال لم يسألوه للدفاع عن العقيدة ، وإنما لأنهم أخرجوا من ديارهم وأولادهم .

أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فهى التى أمنها الله على أن يكون فى يدها الميزان ، وليس هذا الميزان ميزان تسلط ، وإنما هو ميزان يحمى كرامة الإنسان بأن يصون له حرية اختياره بالعقل الذى خلقه الله ، فلا إكراه فى الإيمان بالله . وقد شرع الله القتال لأمة محمد لا ليفرض به دينا ، ولكن ليحمى اختيارك فى أن تختار الدين الذى ترتضيه . وهو يمنع سدود الطغيان التى تحول دونك ودون أن تكون حرا مختاراً فى أن تقبل التكليف .

ولذلك فالذين يحاولون أن يلصقوا بالإسلام تهمة أنه انتشر بالسيف نقول لهم :

إن حججهم ساقطة واهية ، وكـذلك قولهم : إن الإسلام عندما يفرض الجزية فكأنه جاء لجباية الأموال ، نقول لهؤلاء : جزية على مَنْ ؟ جزية على غير المؤمن ، وما دام قد فُرضت عليه جزية، فمعنى ذلك أنه أباح له أن يكون غير مؤمن ، لو كان الإسلام يُكره الناس على اعتناقه لما كان هناك مَنْ نأخذ عليه جزية . إذن، فالإسلام لم يكرهه ، وإنما حماه من القوة التى تسيطر عليه حتى لا يُكرهه أحد على ترك دين، وهو حر بعد ذلك فى أن يسلم أو لا يسلم . وكأن الذين ينتقدون الإسلام يدافعون عنه ؛ فسهامهم قد ارتدت إليهم .

وهنا تساؤل قد يثور : إذا كان الأمر كذلك، فلماذا كانت حروب المسلمين ؟ نقول : إن حروب الإسلام كانت لمواجهة الذين يفرضون العقائد الباطلة على غيرهم، وجاء الإسلام ليقول لهؤلاء : ارفعوا أيديكم عن الناس واجعلوهم أحراراً فى أن يختاروا الدين المناسب . ولماذا تركهم الإسلام أحراراً ؟ لأنه واثق أن الإنسان مادام على حريته فى أن يختار فلا يمكن أن يجد إلا الحق واضحاً فى الإسلام .

ولذلك فكثير من الناس الذين يقرأون قوله تعالى :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾

(سورة البقرة)

لا يفطنون إلى أن العلة واضحة فى قوله ـ سبحانه ـ من الآية نفسها « قد تبين الرشد من الغى » . إذن، فالمسألة واضحة لماذا نُكره الناس وقد وضح أمامهم الحق والباطل ؟ نحن فقط نمنع الذين يفرضون عقائدهم الباطلة على الناس ؛ فأنت تستطيع أن تُكره القالب ، لكن لا تستطيع أن تُكره القلب . ونحن نريد أن ينبع الإيمان من القلب ، ولهذا يقول الحق لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾

(سورة الشعراء)

إن الله لا يريد أعناقاً ، لو كان يريد أعناقاً لما استطاع أحد أن يخرج عن قدره

ـ سبحانه ـ من يُريد الله أن يبتليه بمرض أو موت، فلن ينجو من قدره . إن الحق يريد إيمان قلوب لا رضوخ قوالب . فالذى يجبر الآخرين على الإيمان بالكرباج لن يتبعه أحد ، وهو نفسه غير مؤمن بما يفرضه على الناس . ولو كان مؤمناً به لما فرضه على الناس بالقسر ؛ إنهم سيقتلونه عن طواعية واختيار عندما يتبين لهم أنه الحق المناسب لصلاح حياتهم .

ونحن نلتفت حولنا فنجد أن النظم والحكومات التى تفرض مبادئها بالسوط والقهر تتساقط تباعاً ، فعندما تتخلى هذه الحكومات عن السوط والبطش، فإن الشعوب تتخلى عن تلك الأفكار ، والقرآن هنا يعالج هذه المسألة عندما يتحدث عن القتال وتشريع القتال ، الأمر الذى اختص به الحق أمة الإسلام ، وهو سبحانه لم يأذن بالقتال خلال فترة الدعوة المكية التى استمرت ثلاثة عشر عاماً ، ثم أذن به بعد الهجرة إلى المدينة ، وقد كان من الضرورى أن يتأخر أمر القتال ، لأن الحق أراد أولاً أن يلتفت المسلمون إلى اتباع المنهج حتى يكونوا لغيرهم قدوة ، ويروا فيهم أسوة حسنة ، لذلك قال الحق :

﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وقال سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأحزاب)

لماذا كل هذا التدرج ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى علم أن الدعوة للإسلام ستدخل البيوت العربية ، فسيضم البيت الواحد كافراً بالله ومؤمناً بالله ، ولو أنه سبحانه وتعالى شرع القتال من البداية لصار فى كل بيت معركة .

ثم إن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن تلك القبائل العربية بها كثير من خفة وطيش وسفه ؛ وكانوا يقتتلون لأتفه الأسباب؛ فمن أجل ناقة ضربها كليب بسهم في ضرعها فماتت اشتعلت الحرب أربعين سنة. وفى ذلك يقول الشاعر عند الحفيظة

والغضب :

قــوم إذا الشـر أبدى ـ نــاجـذيه لهم ـ

طاروا إلـيـــه زرافـــات ووحـــدانا

والثانى يقول :

لا يســـألون أخاهم حــين ينـدبهم

فى الـنـائبـــات على مـــا قـــال برهـانا

أى أنهم لا يسألون أخاهم : « لماذا نحارب ؟ » ، وإنما يحاربون بلا سبب ولأى سبب ، فالحـمية الرعناء تدفعـهم للقتال بلا سبب . وفى مقـابل ذلك كانت عندهم نخوة للحق ، فعـندما يرون شخصاً قـد ظلمه غيره ؛ تأخذهـم النخوة ، ويأخذون على يد الظالم ، وأراد الحق سبـحانه وتـعالى أن يهيج فـيهم النـخوة حـين يرون الضعاف من المسلمين مستضعفين ، وقد عزلهم بعض من القوم فى شعب أبى طالب وجوعوهم وقاطعوهم حتى اجتـمع الخمسة العظام فى مكة وقالوا : « كيف نقبل أن نأكل ونشرب ونأتى نساءنا وبنو هاشم وبنو المطلب محصورون فى الشعب لا يأكلون ولا يشربون ولا يتبايعون » .

لقد كانوا كفاراً ، وبرغم ذلك وقفوا موقفاً عظيماً وقالوا : هاتوا الصحيفة التى تعاهدنا فيها على أن نقاطـع بنى هاشم وبنى المطلب ونقطعها ؛ واتفقوا على ذلك . وكانوا خـمسة من سادات مكة هم : هشـام بن عمرو ، وزهير بن أبى أمـية ، وأبو البحـترى بن هاشم ، وزمعة ابن الأسـود ، والمطعم بن عدى . وكانوا قـادة النخوة التى أنهت مقـاطعة المسلمين . هكذا نرى أن العرب كـانوا يتسمون بالحـمية الرعناء وتقابلها النخوة فى الحق .

ويعلم الحق سبـحانه وتعالـى أن نقل أمة العرب مما إعـتادته ليس أمراً سـهلاً ، لذلك أخذهم برفق الهَوَادة . والذينَ يقولون : لماذا لم يحارب المسلمون أعداءهم من أول وهلة ولماذا لم يقتلوا صناديد الكفر فى مكة ؟

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

نقول لم: إن كثيراً من الذين كنتم ترون قتالهم فى بداية الدعوة الإسلامية هم الذين نشروا راية الإسلام من بعد ذلك ، ومثال ذلك خالد بن الوليد، الذى كان قائداً مغوارا فى صفوف المشركين، وقاتل المسلمين فى أول حياته، ثم هداه الله للإسلام وأصبح سيف الله المسلول، ماذا لو قتل هذا القائد الفذ على أيدى المسلمين؟ كان مثل هذا الفعل سيتسبب فى حرمان المسلمين من موهبته، تلك الموهبة التى أسهمت فى معظم الفتوحات الإسلامية فى الشام والعراق.

إذن شاءت حكمة الله أن يستبقى أمثال خالد وهم خصوم للإسلام فى بدء الدعوة لأن الله قد أعد لهم دوراً يخدمون به الإسلام. والذين نالوا من الإسلام أولا هم الذين ستبقى عندهم الحرارة حتى يعملوا عملاً يغفر الله لهم به ما قد سبق.

انظر إلى عكرمة بن أبى جهل كان شوكة فى ظهر المسلمين فى بداية الدعوة، ثم أسلم وأبلى بلاء حسناً، ولما أصيب فى موقعة اليرموك وأوشكت روحه أن تصعد إلى خالقها نظر إلى قائده خالد بن الوليد وقال: أهذه ميتة تُرضى عنى رسول الله؟. كأنه كان يعلم أن رسول الله كان قد غضب عليه قبل أن يسلم.

وعمرو بن العاص داهية المسلمين الذى لولاه ما فُتحت مصر. فقد كسب بدهائه أهل مصر فامتنعوا عن قتاله، وناظرهم بعد ذلك حتى استل حقدهم على المسلمين. وأبان لهم أن رسول ﷺ قال موصياتهم «استوصوا بالقبطيين خير لأن هم رحما وذمة» وفوق هذا فقد أرسله النبى ﷺ إلى بعض العرب يستقرهم إلى الاسلام.

إذن فمن رحمة الله أنه لم يشأ تشريع القتال من البداية، وإلا لكنا فقدنا كثيراً من قادة الإسلام العظام الذين حملوا لواء الدعوة الإسلامية فيما بعد. وكل إنسان استقاه الإسلام وهو خصم وعدوا للإسلام، قدر الله له بعد الإسلام دورا يخدم به الدين الخاتم.

من هنا نفهم الحكمة من تأخير القتال فى الإسلام، لأن الله أراد أن يمحص ويختبر، وألا يدخل هذا الدين إلا من يتحمل متاعب هذا الدين، ومشاقه لأنه

سيكون مأموناً على مجد أمة، وعلى منهج سماء، وتلك أمور لا يصلح لها أى واحد من الناس .

وقد كان من الممكن أن ينصر الله دينه من أول وهلة دون تدخل من المسلمين، وكان معنى ذلك أن الناس سيتساوون فى الإيمان أولهم وآخرهم، ولكن شاءت إرادته سبحانه وتعالى أن يجعل لهذا الدين رجالاً يفدونه بأرواحهم وأموالهم لينالوا الشهادة ويرتفعوا إلى مصاف النبيين . لذلك جاء الأمر بالقتال متأخراً وبالتدريج : لقد جاء الأمر بالقتال فى أول مرحلة بقول الله تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ اشتاق هو وصحابته إلى البيت الحرام، وأرادوا أن يعتمروا، فجاءوا فى ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة. وأرادوا أن يؤدوا العمرة فلما ذهبوا وكانوا فى مكان كان اسمه الحديبية، ووقفت أمامهم قريش وقالت: لا يمكن أن يدخل محمدٌ وأصحابه مكة .

وقامت مفاوضات بين الطرفين. ورضى رسول الله بعدها أن يرجع هذا العام على أن يأتى فى العام القادم. وتخلى لهم مكة ثلاثة أيام فى شهر ذى القعدة .

وكان رسول ﷺ قد بشر أصحابه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام محلقين ومقصرين ، وشاع ذلك الخبر ، وفرح به المسلمون وسعدوا، ثم فوجئوا بمفاوضات رسول الله ورجوعه على بعد نحو عشرين كيلو متراً من مكة وحزن الصحابة . حتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه غضب وقال للنبى ﷺ :